

## مقدمة

تعارف العلماء تقسيم المعارف الإنسانية إلى دوائر وأقسام واضحة المعالم ، بيّنة الحدود . وهم يقصدون ، من وراء ذلك ، تبسيط المعرفة بالمعالم الطبيعية - المعقّدة أشدّ التعقيد ، المنظّم أعظم تنظيم ، المملوء بالأسرار والمفاجئات - وتسهيل معرفة حدوده التي لا تنتظمها ضوابط ما .

غير أن علينا أن نذكر - كما يقول الأستاذ بريرلي - أن هذه الأصول هي عملية مصطنعة ؛ لأن كل دائرة للمعارف - ولا فرق في أن تكون من النوع الواسع ، أو أن تكون من النوع الضيق المختص بمسألة واحدة فقط - لا تحيط سوى بجزء واحد ، ووجه واحد للحقائق الكثيرة الموزعة هنا وهناك في ميادين الطبيعة . ومن أجل هذا ، كان لزماً علينا ، عندما نركّز بحثنا في الدائرة التي أمامنا مباشرة ، أن ندرك أن بحثنا يتعرض لناحية واحدة من المسألة ، وعلينا أن نوسعه بالاطلاع على أبحاث دوائر المعارف الأخرى ومصادرها ، لكي نحصل على صورة مركّزة بعض التركيز ، كاملة نسبياً تحيط بالحقيقة كلها وتلم بجميع أطرافها . ولا بدّ لنا من تفهّم صلة الماضي بالحاضر ، ومن تلمّس أثر هذا الحاضر في المستقبل .

قد يخطر لك أن تصف شجرة مما يظهر من أقسامها أمام بصرك : فتصف الجذع والأغصان والورق والزهر والثمر . ولكن هذه الدائرة من المعرفة بالشجرة لم تبين لك سوى قسم من حقيقة حياة تلك النبتة ؛

فالجذور الكامنة تحت الأرض ، والتربة التي نشأت فيها وتغذت بعناصرها ، والماء الذي حلل تلك العناصر ، والهواء ونور الشمس اللذان لولاهما لما أتيح لها أن تتنفس وأن تنمو : كل هذه العوامل لم تدخل في دائرة معارفنا الأولى ، بل كانت غائبة عن أعيننا عندما أخذنا في وصف الشجرة من أجزائها الظاهرة للعيان . وصفوة القول إن الشجرة مرتبطة بألف حلقة من سلسلة تاريخها الماضي وظروفها الحاضرة ؛ وإن إدراك الإنسان لحقيقتها يتوقف على نسبة اكتشافه لتلك الحلقات ، ومقدار تفهمه لتلك الروابط والصلات ، وتقديره عظم تأثيرها في ذلك الكائن الحي الذي لا يظهر منه للعينين سوى أقسام معينة .

على أن هذا المثل قد يبدو لأول وهلة بعيداً عما نحن بصدد دراسته من النظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية ( بتحديدنا الواسع ) وأشكال الحكومة والقانون . ولكن الواقع غير ذلك : إننا إذا اقتصرنا على وصف تلك النظم والمؤسسات من وجوها البادية أمامنا ، نكون كمن اقتصر على وصف الشجرة بما بدا له من أقسامها الظاهرة . وليس بوسع الباحث أن يفهم نظاماً ما ، بئله أن يحكم بصلاح قانون أو عادة أو عرف - اجتماعي أو سياسي - قبل أن يُلمَّ بجميع الظروف والأحوال والعوامل التي أدت إلى نشوئه وانتشاره في الماضي ، وقبل أن يحيط بالقوى التي تؤثر في وصفه الحاضر وتعدل في تقدير قيمته العملية في المستقبل . وعلى الجملة علينا أن ندرس النمو بالنسبة إلى حال الأرض التي نبت الشجر فيها .

دراسة العالم الذي نعيش فيه : لقد بين كاتب حديث هو ا . ل . روس ، في كتيب له سماه « فائدة التاريخ » ، الأسباب التي تحتم دراسة التاريخ

للوصل إلى قصة الزمن الحاضر . إن الفائدة الرئيسية ، وليست هي الفائدة الوحيدة ، كما يقول هذا المؤلف ، من فوائد التاريخ ، أنه يؤهِّلك - أكثر مما يؤهِّلك أى نظام آخر - لأن تفهم وتدرِّك قيمة الأحداث العامة والشؤون والنزعات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأيام التي تعيش فيها . ويتسامل الاستاذ روس بعدئذ ، وماذا قد يكون أعظم وأجلَّ من ذلك ؟ لأنك إذا لم تفهم العالم الذي تعيش فيه تكون ولا شك مدمية له يعبت بها ، وقد تصبح يوماً ما من ضحاياه الكثيرين . والتاريخ ، في رأيه ، يبحث في المجتمع الانساني ، وفي قصته ، وفي الظروف والعوامل التي جعلت ذلك المجتمع في وصفه الحاضر ؛ على أن معرفة الصورة التي كانت عليها المجتمعات الإنسانية في الماضي ، وما أصابها من التطور ، يُقدِّم لك مقاتيح العوامل التي تؤثر فيها ، ويوقفك على المؤثرات والمعوقات ، العامة والشخصية ، التي تصقل الأحداث وتركزها . إنك تبحث في الطبيعة الإنسانية كل الوقت .

إن موضوع هذا الكتاب هو في « المدن الفاضلة » . وهو يبحث في طبيعة الإنسان . ولكنه بحث نظري خالص . وعليما أن نذكر عند النظر فيه أن العلماء الذين ألفوا موضوعاته لم يكتبوا في لوح نظيف أبيض ، وإنما أملوا ما كتبوه تحت تأثير ظروف عصورهم العامة ، وشؤون حياتهم الخاصة . وليس في الإمكان قطع صلة الحاضر بالماضي ، كما أنه من غير الميسور نقل أسس التفكير من عقل إلى عقل آخر ، ومن عصر إلى عصر آخر ، من غير أن تصيبها يد التعديل والتحويل .

أما الثورات التي حدثت في التاريخ المدوَّن فقد ثبت أن « اللوح » الذي رسمت عليه عوامل الأحداث الجديدة لم يكن نظيفاً أبيض تماماً . إن المؤثرات التي تكوَّن الأنظمة الثورية الجديدة ، والسنن والعادات والتقاليد

السائدة وأخلاق الشعب ، والموارد الوطنية ، وأثر المناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، فى المغامز والمنافع الوطنية الدائمة ، والمواقع الاستراتيجية ، والأحوال الاقتصادية وغيرها : - كل تلك العوامل تتجمع وتشهد لتقف فى وجه من يتوهم أن البداية الجديدة تعنى عالماً جديداً . إن الخلف دائماً يأخذ عن السلف ويغرف من بحره .

والواقع أننا كالشجرة ، أصولنا فى تربة التاريخ ، ونحنكم بنا الأحوال التى نولد فيها . غير أننا نستطيع أن نفعل أكثر من إغناء التربة بمحشئنا بعد الموت ، لأننا لسنا شجراً أو نباتاً ، بل نستطيع أن نعمل على تغيير بيئتنا وعلى إنتاج أحوال وظروف لم تكن لأسلافنا وأجدادنا ، ولم يكن ليتوهمها أو يحلم بها أولئك الأسلاف والأجداد .

ولا يوحى إلينا التاريخ أن الإنسان هو مجرد آلة صماء فى ميدان القوى الطبيعية ، لا حول له ولا طول أمامها ؛ فإن فكرة كهذه بعيدة عن الحقيقة كبعد ذلك التوهم - القائل بأن الإنسان يستطيع بإرادته أن يتحلل ويتحرر من تقاليد الماضى ومؤثراته - عن الواقع . ولم يبرهن لنا التاريخ وجوب « بقاء ما كان على ما كان ، إلى ما لا نهاية بل لقد أرانا النقيض من ذلك : أرانا أن أفعال الإنسان تؤثر فى مقدرات الإنسان ، بالرغم من تمسكنا بقاعدة الاستصحاب واعتبار أن الأصل بقاء ما كان على ما كان كبداية نسير منها فى البحث .

إننا نتعلم الكثير فى السياسة والقانون والاجتماع من السكتب العظيمة التى ألقت فى الماضى عن هذه الموضوعات . بيد أننا لا نستطيع أن نفرز السمين فى محتويات تلك السكتب من الغث دون أن نحيط بالظروف التى كتبت فى أيامها . لأن أعظم أولئك السكتب لم يكن إلا بشراً عاش فى عصر معين ، وفى بلد معين ، ولذلك فقد بنى كتابه على بيئته دون حاجة إلى

أن يصفها لمعاصريه لأنهم كانوا يعرفونها تمام المعرفة ؛ غير أننا نحن الذين نعيش في عصر غير ذلك العصر ، وفي أرض غير تلك الأرض ، نحتاج إلى من يصف لنا تلك البيئة . وكلما زادت معرفتنا بذلك العصر وذلك البلد زاد إدراكنا لغاية المؤلف وموضوع الكتاب . والواقع أن الأحكام في التاريخ تتغير بتغير الأزمان والأماكن .

ولنضرب مثلاً على هذا : عند ما كتب أفلاطون وأرسطو عن الدولة والقانون فكسرا في الدولة والقانون على الوجه المعروف لديهما في الدويلات اليونانية — المدن Polis — وإن ترجمة هذه الكلمة ( المدينة ) بالدولة هو خطأ شائع . إن الدولة ( المدينة ) هي في عرف العصر الحاضر مجتمع صغير ، ولكنها كانت في عين أفلاطون وأرسطو مركزاً ملائماً لدراسة أصول الحكم والقانون . ولذلك فإن جميع نتائج دراساتها مشوبة بتأثير هذا الافتراض . وإن كثيراً من نتائج تلك الأبحاث لا يمكن تطبيقه على دول العصر الحاضر ، مع أن القائمين بها لم يقصدوا تطبيقها عليها . والحال على هذا مع بقية المؤلفين العظام ؛ لأنهم لم يؤلفوا للعصر الحاضر : ولكنهم كتبوا - عمداً أو عن غير قصد - على أساس المسائل التي سادت في عصرهم وفي بلادهم .

ولكن ما دام علينا أن نأخذ بعين الاعتبار جميع هذه العوامل - الزمانية والمكانية - عند ما نقرأ المؤلفين القدماء ، فلنا أن نتساءل : لماذا نظل دائبين على دراستهم إذا كنا لا نجد فيها ما يستحق البحث والاستيعاب ؟ وإذا كان أولئك المؤلفون قد اكتشفوا حلولاً للمسائل التي صادفتهم في السياسة وأصول الحكم ، أليس بوسعنا أن نضع حلولاً لمسائلنا من المؤلفات الحديثة ؟

لقد وضع الأستاذ (جلبرت مورى) في مؤلف حديث له اسمه (دراسات

إغريقية) سببين لرفض هذه النتيجة : الأول أن المسائل الفلسفية لا تقتضى حلولاً لها كما هي الحال في المسائل العملية ؛ وإنما يكفي فهمها أن تفهم بوضوح . مثال ذلك أنك لا تجد حلاً نهائياً في الفلسفة السياسية لطبيعة الالتزامات السياسية ، أو للعلاقة الصحيحة بين الفرد والدولة التي هو من رعاياها ، أو للمركز الذي يشغله القانون بالنسبة للحكومة . ليس بوسعك أن تحل هذه المسائل وأمثالها ، ولكنك تستطيع أن تفهمها وترفض الأجوبة الخاطئة بالنسبة إليها . وخير طريق لك هي أن تبحث هذه المسائل المرة تلو المرة بمساعدة العقول العامرة التي فكرت فيها فيما مضى من الأزمان

والسبب الثاني الذي جاء به الاستاذ (مورى) هو أن علينا - إذا رغبتنا في أن نلم بالمسائل التي أمامنا بشكل واضح - أن نخرج من جو التقليد والعرف ، المحبوسة فيه جميع أفكارنا ؛ لأننا إذا نظرنا إلى كل المسائل الفلسفية الدائمة بمنظار المدنية الغربية الحديثة فحسب ، نكون قد قوينا أسوار ذلك الحبس . وخير طريقة لتحرير أنفسنا من هذا الميل وذلك الانحراف الملازم لبيئتنا أن ننظر إلى تلك المسائل بمنظار جديد ، وبطريقة غربية عنا .

ومثل آخر على تأثير البيئة المحلية أو البلد على البحث نستقيه من العصر الحاضر . إن تعريف الديمقراطية في المدن الغربية الحاضر هو غيره في السكتلة الشرقية . فإذا راجعنا قاموس أكسفورد الانكليزي مثلاً نجد أنه يعرف الديمقراطية بأنها حكومة من الشعب ؛ ذلك الشكل من الحكومة الذي تكون السيادة فيه للأمة كمجموع ، فتمارسها إما مباشرة ( كما كانت الحال في بعض جمهوريات الاقدمين ) أو بواسطة موظفين تنتخبهم . وفي الاصطلاح الحديث تعني بشكل يكتنفه الغموض دولة اشتراكية يتساوى الناس فيها بالحقوق ، دون أن تكون هنالك فوارق إرثية أو استبدادية في الطبقة أو الامتيازات ، . أما سياسة روسيا السوفيتية فيستعملون هذه الكلمة

فى التعبير عن ممان غير هذه : لقد جاء فى خطاب للمسيو ( فيشنسكى ) نائب  
كوميسير الشؤون الخارجية السوفيتية : « إن الديموقراطيين هم أولئك الذين  
يحبسون جهودهم على خدمة الشعب ، وهم الذين على استعداد لأن يضحيوا  
بحياتهم ، الذين يعملون من أجل الشعب ؛ من أجل الفلاحين ، والعمال  
والمثقفين ، ويعملون من أجل أولئك الذين يخلقون بعملهم وكدحهم  
الطيبات والأشياء التى لهم الأولوية باستعمالها » .

وهذا التعريف يجعل التمييز بين نوع الحكم الديموقراطى والأنواع  
الأخرى متوقفا على الغرض الذى تستخدم فيه سلطات الحكومة ؛ بينما نجد  
التعريف الغربى لهذا المصطلح يشير إلى طريقة تأليف تلك السلطات .

ولندع الآن هذه الأبحاث العامة لتتقدم إلى بحث « المدن الفاضلة »  
التي أفردنا لها فصول هذا الكتاب .

إن كل الدراسات الحديثة الصحيحة فى أصول علم السياسة تبدأ باليونان  
بوجه عام وبجمهورية أفلاطون بوجه خاص . هنالك ترجمات انكليزية  
كثيرة للجمهورية ، منها ترجمة ( جويت ) ودكتور ( كورنفورد ) . وهناك  
ترجمة عربية واحدة للشيخ الجليل حنا خباز ؛ وقد اعتمدنا عليها وراجعنا  
أرقاماً منها على الترجمات الانكليزية . ولا تكاد تخلو لغة من اللغات فى العالم  
من ترجمة هذا التراث العظيم . وقد يكون كتاب الجمهورية فى مجموعه قطعة  
أدبية خالدة ، أو أنه - كما وصفه سير فردريك پولوك - إنتاج عبقرى  
للخيال الفلسفى أكثر منه بحثاً فى علم السياسة .

إن مؤسس علم السياسة الحقيقى هو أرسطو . أما أفلاطون فقد اتخذ  
أسلوباً متماثلاً فى تحليله حياة الانسان الخاصة ، والمسائل العامة على  
السواء ، بينما كان أرسطو أول من فصل بين الأخلاق والسياسة ، وأفرد  
كتاباً لكل من هذين العلمين . على أنه ليس بوسع أحد أن ينكر الصلة بين

الأميرين . وقد يكون الاتصال في عهد الدويلات اليونانية وأيام أفلاطون واضحاً أكثر منه اليوم . ومع ذلك فإن الموضوعين ليسا سواء ، كما أن اعتبارنا للدولة كالفرد — كما فعل أفلاطون — يؤدي بنا إلى التشويش ، فنحرف عن سواء السبيل .

إن العجز عن التمييز بين الدولة والمجتمع في المصور الحديثة ، وإن الاعتقاد بأنه ليس ثمة حدود لسلطان الدولة لأنها تقوم من تلقاء نفسها بكل ما تراه مناسباً أو ضرورياً للحياة الرغيدة ، هو أصل أركان الديكتاتورية الحديثة Totalitarianism وعلى ذلك ، وفي الواقع ، علينا أن نعترف بأن نظرة اليونان إلى الدولة كانت ديكتاتورية ؛ من أجل هذا قد يتسامح المرء ، وله ملء الحق في هذا التساؤل ، لماذا ما تزال النظريات الإغريقية في السياسة ، تشغل مركزاً جليلاً في الدراسات الحديثة ؟ والجواب على ذلك أن وجهه التشابه بين الديكتاتوريات الإغريقية والديكتاتوريات الحديثة هو سطحي فقط ، وقد نشأ من طبيعة المدينة اليونانية ( Polis ) . لقد جوّز اليونان « للمدينة » أن تمتد بسلطانها إلى جميع مناحي الحياة دون أن يضحوا بالفرد في سبيل ذلك كما فعلت الديكتاتورية الحديثة ؛ ذلك لأن المدينة كانت صغيرة يقيم فيها مجتمع قليل العدد أفراداً ؛ ولأن الحكومات جعلت لارعية مطلق الحرية في أن يعيشوا كما يشاءون وتشاء لهم أحوالهم .

نما تقدم تبين لنا قيمة دراسة كتاب الجمهورية لأفلاطون ، وهو أول كتب المدن الفاضلة التي عرفها التاريخ . أما الثاني من تلك الكتب فهو « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابي . وقد أسهبنا في وصف العصر الذي وضع فيه المؤلف كتابه ، وبيان أحوال العالم الإسلامي يوم كتب ذلك الكتاب . لقد سار الفارابي في كتابه على أسلوب علماء القرون الوسطى فخرج بين الفلسفة الإلهية والأخلاق والسياسة ؛ ووضع تعليلاً للنبوّة — قال :

« وذلك أن القوة المتخيلة إذا كانت في إنسان ما قويةً كاملةً جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من الخارج لا تستولى عليها استيلاءً يستغرقها بأسرها ، ولا أخذ منها للقوة الناطقة . . . لا يمتنع أن يكون الانسان - إذا بلغت قوّته المتخيلة ( على هذا الوجه ) نهاية الكمال - يقبلُ في يقطته عن العقل الفعّال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية ، أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراهها ، فيكون له بما قبّله من المعقولات نبوة بالاشياء الإلهية .

ومدينة الفارابي التي تخيلها تسير على النظام الديكتاتوري : هنالك رئيس له صفات الامامة الشرعية كاملة - ودونه قوم مرءوسون منه ويرؤسون آخرين . . . » ويصير الرئيس بما يفيض من العقل الفعّال إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن .

لقد اختار الفارابي أول رئيس لدولته نبياً حكيماً ، ويؤخذ من أوصافه أنه قصد به رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يقيّد خلفاءه بالشرعية ، وإنما جعل لهم الخيار في توزيع العدل على الرعية كما يختارون . إن الرئيس الذي يجمع بين النبوة والحكمة لم يوجد على الأرض بعد محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ولذلك فإنه لا بدّ لسعادة البشر من التمسك بالمبادئ لا بالأشخاص ؛ ولا بدّ إذّا من الخضوع إلى شريعة يحتكم اليها الخاصّ والعام فتساوى بينهم في الحقوق والواجبات . ولا تحقق المدينة الفاضلة هذا للناس كافة ، ولا تضع ضماناً لحرياتهم .

وكذلك نرى أن حكومة الرئيس الفيلسوف هي لون من الحكم أحط من حكومة الشريعة والقانون . لأن الرعية فيها يقفون موقفاً سلبياً لا يقومون إلا بما يأمرهم به الرئيس ، بينما في حكومة الشريعة تتعاون الرعية

يعلى بلوغ السعادة للدولة ورعيتهما ولا يتوقف باوغها على صلاح الرئيس أو فساده بل على تعاون الأمة جميعاً تعاوناً وثيقاً مستهدفاً خيرها .

والمدينة الثالثة من المدن الفاضلة التي خلدها التاريخ هي ( يوتوبيا ) التي ألفها سير توماس مور . لقد عاش مور في القرون الوسطى : ومن العسير أن يبسط المرء قاعدة عامة استنبطت من مجرى التفكير في تلك العصور ، لأن ذلك قد يوهم الباحث بأن الناس في تلك الأيام اعتنقوا مذاهب فكرية متباينة . ومهما يكن من أمر فإن من الحق أن يقال إن المفكرين في القرون الوسطى — ومن جملةهم سير توماس مور — آمنوا بحقيقتين جوهريتين في الفكر السياسي : أولاهما أن سلطان الدولة هو محدود دائماً ، وأن السلطة العليا والسيادة في الدولة هي للقانون ، ويجب أن تكون دائماً كذلك . والفكرتان متصلتان ببعضهما ، غير أننا سنتحدث عن كل منهما فيما يلي :

لقد كانت القرون الوسطى معارضة للديكتاتورية . ولم يكن في الإمكان أن تكون تلك العصور على غير ذلك . لأن السلطة كانت موزعة في كل مكان بين قوتين : القوة الروحية والقوة الزمنية . إن النزاع الطويل بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة قد أخذ أنفاس الديكتاتورية ، ولم يمكنها من رفع رأسها عالياً . ومهما يختلف الناس في حدود منطقة نفوذ كل من هاتين المنظميتين فإن الحاجة كانت ماسة في النظام الاجتماعي لكتيبيهما ، وكان بديهياً أن لا تنفرد إحداهما عن الأخرى باحقيتها بولاء الناس جميعاً خالصاً لها من دون الأخرى .

أما سيادة القانون فقد كانت تعني أن القانون هو الذي عين حقوق الحاكم . لقد وجد بين حكام تلك الأيام من طغى وتجبر على الرعية ، ولسكنه لم يكن ليدعى أنه يقوم بأعمال الجور والطغيان إنفاذاً للحكم القانون . وقد كان الرأي الإجماعي السائد آنئذ أن القانون هو الذي أوجد الحاكم ،

وليس — كما ادّعى بعض الحكماء المستقبين فيما بعد — أنهم هم الذين أوجدوا القانون . والواقع أن القرون الوسطى لم تنظر الى القانون كمجموعة وضعها بعض الناس عن عمد وتصميم ، وإنما كانت تعتبر منها جأ حوى حقوق الناس وواجباتهم على وجه العدل والإنصاف ورثه المجتمع عن أسلافه الغابرين .

ولعل ما يقابل سيادة القانون هذه ، فى العصور الحديثة ، هى الدساتير فى البلاد المختلفة المتعدنة .

ونحن نقف الآن فى إشارتنا الى المدن الفاضلة الثلاث التى أفردها هذا الكتاب . ونرى لزماً علينا قبل أن نختم هذه المقدمة أن نشير الى مدينتين فاضلتين أخريين فى التاريخ : أولاهما مدينة الشمس <sup>١</sup> تأليف كامبانيايلا ، والثانية مغامرات تيلياك تأليف فينيولون <sup>٢</sup> .

تعتبر مدينة الشمس من المدن الفاضلة لأنها تصور دولة مثالية فيها شبهة كثير ، وخلاف كثير ، لما فى المدن الفاضلة الأخرى . كان كامبانيايلا راهباً دومنيكياً عاش بين سنة ١٥٦٨ وسنة ١٦٣٩ وعُذِّب عذاباً لم يُعَذِّب به أحد ، وقضى فى غيابة السجن زمناً طويلاً . وكتب « مدينة الشمس » فجاءت قطعة أدبية تسرد ما عاناه فى حياته ، ووصفاً خيالياً لما تركه شقاء تلك الحياة وتعاستها من ردّ الفصل فى نفسه . لم يعترف مؤلف مدينة الشمس بالملكية الفردية فى مدينته . وقال بشيوعية الأموال والنساء . وأشخاص الرواية هم أربعة : الرئيس واسمه ( هوو ) ومساعدوه الثلاثة وهم الأمرام ( پون ) و ( سين ) و ( مور ) . ويقابل هؤلاء من الصفات أن ما يأمر به ( هوو )

---

The City of the Sun, Campanella. — ١

Les Aventures de Télémaque, Fénelon. — ٢

يوافق عليه مساعدوه الثلاثة . وهذا طبعاً من الصفات الملازمة للديكتاتورية ولعل المسائل التالية هي أبرز ما في الكتاب :

يبحث كامبانياً بوضوح في الصراع بين الغرائز الفردية والغرائز الاجتماعية ، ويدلل على أن الغرائز الفردية ليست مجرد أنانية تطيب لنفس الفرد ولكنها متأصلة في الأسرة .

« يقولون إن كل الأموال الفردية قد أحرزها الناس وحسنوا فيها كما يكون لكل منهم بيت وزوجة وأولاد . إن الأثرة وحب الذات ينشآن من هنا . ذلك لأننا كلما رفعنا ولداً إلى مركز الغنى والشرف ، وأغدقنا الأموال على الوارث ، نكون على استعداد : إما لأن نعتدى على أموال الدولة ، إذا لم نخف من القوة التي تسيطر على الغنى والشرف ؛ وإما لأن نكون بخلاء متمارين . ولكن إذا أزلنا من الوجود الأثرة وحب الذات لم يبق أماننا سوى حب الدولة ١ » .

وإلى جانب هذا نجد في كامبانياً بحثاً مستفيضاً في علم التوليد وعقيدة في أن الأولاد الذين تنجبهم الرعية هم للدولة ومن أجلها ، ولا يختص بهم الأبوان دون الدولة . « إنهم يسخرون منا ويهزأون بنا لأننا نهتم بأصول وعراقة خيولنا وكلابنا ونهمل أصول السلالات البشرية ٢ » .

« إن التصرف على الرعية منوط بمصلحة الدولة ولا يستهدف منفعة الأفراد فقط ؛ وإنه يجب علينا أن نطبع الشرائع الطبيعية وهي تنكر أن للمرأة الحق الطبيعي أن يعترف بفروعه ويعلمهم ، وأن يستعمل زوجته وبنيه وأولاده ، كما لو كانوا خالصين له من دون الناس . لأن الشرائع تقول

إن الأولاد ينجبون لحفظ النوع وليس للذة الفردية ، كما بسط هذا الرأي سانت توماس<sup>١</sup> .

والدولة مسؤولة - على حد قول ( مور ) ( الحب ) - عن تعليم الأولاد ، لأن الأفراد - على الغالب - ينجبون الأولاد خطأ ويعلمونهم خطأ<sup>٢</sup> .

والمسألة الأخرى البارزة في مدينة كامبانيا هي نظرتة إلى العمل . يلغى كامبانيا في كتابه الرق والاستعباد ويمجد جميع أنواع الأعمال . ويحدد ساعات العمل اليومى بأربع فقط ، على أن تستضى بقية ساعات اليوم بالتعلم المبهج .

وأخيراً فلنبحث في ( مغامرات تيلياك ) تأليف فينيلون : إن هذا الكتاب رواية تربية ألف بادي<sup>٣</sup> الأمر لتعليم دوق برجاندى الشاب . وقد مزج فينيلون فيه الأساطير الكلاسيكية بالدروس الخلقية والسياسية . يُقسم الكتاب إلى مدينتين فاضلتين ، الأولى ( لا بيتيك<sup>٤</sup> ) والثانية هي مدينة ( سالنت<sup>٥</sup> ) .

إن بلاد ( لا بيتيك ) السعيدة قد حبتها السماء بموقع عظيم ومناخ ليس له مثيل على اليابسة أو في البحر . سماءها صافية جميلة ، وشتاؤها دافئ ، وصيفها منعش وهواؤها عليل . وفصولها طول السنة ازدواج الخريف بالربيع . ومن أجل ذلك فإن الأرض تنتج محصولين في السنة . وأطراف الطرقات مغطاة دائماً بالأشجار الخضراء ، وقمم وسفوح الجبال تغص دائماً

---

١ - The City of the Sun p. 235

٢ - p. 236 » »

٤ - Salente

٣ - La Bétique

بالأنعام . ومن المسلم به أن الناس الذين يعيشون في مثل تلك الأحوال تلبسهم السعادة من الرأس إلى أخمص القدم . ولسكنهم مع ذلك يقنعون بالحياة البسيطة ويستخدمون الفضة والذهب - وهو كثير عندهم - في صنع المحاريت ونظر الآن مناخ بلادهم جميل فهم لا يحتاجون إلى بناء بيوت يأوون إليها ، وإنما يقضون أيامهم ولياليهم في العراء أو في الخيام ؛ ولا يخيطنون ثياباً أو يلبسونها لأنه لا حاجة لهم بها . ولا يقنسمون الأرض لأنها مشاع بينهم . ولا يشربون الخور أو يسهرون الحروب . وإن فضائلهم لا حصر لها . والواقع أن فينيلون قد أخذ أوصاف جنات عدن التي وعد الله بها المتقين فأسبغها على ( لا بيتيك ) .

لقد قال أحد أعلام الأدب الافرنسي إنه يجب للتلذذ بكتاب فينيلون هذا أن يقرأ في أيام الشباب البريئة ١ .

أما مدينة ( سالت ) فإنها تتضمن إرشادات لعودة الدولة إلى الحالة السعيدة . تتمتع التجارة الخارجية في الكماليات ؛ تتلف أدوات الزينة الذهبية والفضية . . . وفي النتيجة يبدأ السالنتيون - الذين شكوا فقرهم في السابق - يشعرون بالرخاء والسعادة . لأنهم قد أعيدوا إلى الأرض التي بقيت بوراً زمناً طويلاً ، وعُزِّزوا بسكان آخرين مُجلبوا من الدول المجاورة ليساعدوهم في الأعمال الصعبة . وقد جبيت منهم ضرائب بسيطة وشُجِّع الزواج بينهم . لم تكن الأرض أبداً ناكرة للجميل ؛ إنها تغذى دائماً بأثمارها أولئك الصالحين الذين يفلحونها بعناية ؛ وإنها تمنع خيراتها عن الذين يضمنون عليها بجهودهم . وكلما ازداد عدد أولاد العمال ازداد ثراؤهم . . . لأن الأولاد يبدأون بمساعدة ذويهم منذ نعومة أظفارهم .

وخلاصة ما رأى فينيلون أن يقدمه إلى ملك فرنسا في المستقبل هو :  
ان الترف ضارٌّ مضرٌّ ، وان البساطة في الحياة أمر مرغوب فيه ، وان  
الزراعة الناجحة هي من مقومات الدولة القوية ، وإن غاية سياسة الدولة  
يجب أن تكون إيجاد عدد عظيم من السكان يعيشون في المزارع لافى المدن  
وإننا نكتفى بهذا الحد من التحدث عن « المدن الفاضلة » فى التاريخ .  
مع أن هناك مدناً أخرى حديثة قد أغفلنا ذكرها . « وإن المدن التى تحدثنا  
عنها ليست فى الواقع نقداً موجهاً إلى الحكومة القائمة والأنظمة الاجتماعية  
بقدر ما هى نقد موجه إلى الطبيعة الانسانية . إن الانسان أنانى لدرجة أنه  
يؤثر زوجه وأولاده على أزواج الآخرين وأولادهم . إنه أحق وطامع  
ومختال نفور مندفع وراء الشهوات » .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أرى أن أشيد بفضل المؤلفات التى  
اعتمدت عليها فى هذا البحث . لقد أشرت إلى كثير منها فى أما كتبها من  
فصول الكتاب . غير أنى أسجل هنا تقديرى لكتاب الاستاذ جراى  
( السَّنة الاشتراكية ١ ) ، وإلى الفصل الذى كتبه الأستاذ بريرلى فى  
كتاب ( القانون والحكومة ٢ ) عن الديموقراطية وفصول أخرى من  
الكتاب عينه ؛ وإلى كتاب أو جبرن ونيمكوف فى ( علم الاجتماع ٣ ) ؛  
وكتاب ( علم الاجتماع للقرن العشرين ) وقد اشترك فى تأليفه عدد كبير من  
علماء الاجتماع تحت إشراف جيرفتش ومور ٤ .

---

١ - The Socialist Tradition, by Alexander Gray.

٢ - Law and Practice, Editor, Prof. T. L. Brierly.

٣ - A Handbook of Sociology, by Ogburn, and Nimkoff.

٤ - Twentieth Century Sociology, by G. Gurvitch, and W. Moare.

إن « المدن الفاضلة » التي تضمنتها هذا الكتاب خيالية ؛ وقد كنت أرجو أن أضمم إليها مدينة حقيقية جمعت الفضل كله وهي مكة المكرمة ، ولكنني لم أتمكن حتى الآن من جمع كل المواد المتصلة بها ، ولعل أوفق في أفراد بحث خاص لها في المستقبل إن شاء الله .

محمد يونس الحسيني

في ١٢ ربيع الأول ١٣٧٠  
وفق ٢٢ ديسمبر ١٩٥٠

القاهرة